المعلم الغساني

الله والوطن — الاتحاد والارتقاء

مجلة سياسية علمية ادبية تهذيبية

« يكون الرجال كما يريد النساء فاذا اردتم ان يكونوا »
« عظاماً وفضلاء فعلموا النساء ما هي العظمة والفضيلة »

« ليست وظيفة المدرسة منصورة على تعليم العلوم فقط »
« فان بث الفضيلة والاقدام من اخص وظائف المدرسة »

الاسكندرية في اغسطوس (آب) سنة ١٨٩٩ — الموافق ٢٢ ربيع الاول سنة ١٣١٧

باب المقالات

تعلموا الاقدام

✻ من غلام ✻

(ولد عمره ١٥ سنة يقابل ملوك العالم وينشئ لنفسه)
(في بضعة اسابيع مكاناً وشهرة واسعة)

قال نابليون الاول — « ان مصير العالم روسي او اميركي » وقد عنى بذلك ان في روسيا واميركا قوى جديدة عظيمة كامنة في نفوس ابناء هذين الشعبين وخيرات عظيمة مذخرة في ارضهما لذلك ستنقرض جميع امم الارض امامهما و ينحصر النزاع بينهما حتى يقوى القوي و يبيد الضعيف منهما طبقاً لناموس تنازع البقاء

وقد أرتنا روسيا واميركا في هذه السنوات الاخيرة مثالاً لتلك القوى الجديدة العظيمة التي اشار اليها نابوليون . فان روسيا اصبحت في هذا الزمان محور سياسة العالم والدولة التي ترجح بها كفة الميزان يدلك على ذلك علو كلمتها في الشرق الاقصى على كل كلمة وجمعها مؤتمر السلام . اما اميركا فقد ارتنا مثالاً لتلك القوة الكامنة في حربها مع اسبانيا وفي اختراعاتها المدهشة التي تهدم بها العالم القديم يوماً بعد يوم . فانك لا تسمع بامر عجيب غريب ونقول انه اميركي الا وتكون صادقاً . واذا قرأت عنوان هذه المقالة ورأيت فيه « ولداً صغيراً يقابل ملوك العالم وينشئ لنفسه في بضعة اسابيع مكاناً وشهرة واسعة » فلا يخطر لك الا ان هذا الولد اميركي . نعم وهو كذلك فانه هارسيه ستيل موريسون ولد في مدينة (ماتون) من اعمال (ايلينوى) احدى الولايات المتحدة في اميركا الشمالية وعمره اليوم ست عشرة سنة

اردنا ان ننقل لحضرات القراء طرفاً من حياة هذا الولد المقدام دلالة على ما يبلغ اليه الاقدام عند ابناء الامم الحية ومقابلة بين هذا الولد و بين اولادنا الذين تجعلهم تربيتهم البيتية والمدرسية جبناء خوافين ينسد الخمول حالهم فلا يصلحونها بشيء من الاقدام . ويظمن الظلم لهم وعظمهم فلا يجترئون ان يرفعوا صوتا بالشكوى خوفاً من الحكام . وتفسد مياههم لركودها في مكان واحد فيؤثرون من الجبن والكسل والخوف والخمول ان يموتوا في ارضهم على ان يحيوا في ارض يرحلون اليها . وقد ناديناسيفي الاجزاء الماضية وما زلنا ننادي ان تربيتنا فاسدة من اساسها ولا امل للشرقيين بالحياة السياسية والمقدرة على مزاحمة الامم القوية الداخلة بينهم الا متى صلحت التربية البيتية والمدرسية . والاقدام قاعدة من اهم القواعد التي يجب ان يبنى عليها هذا الاصلاح ليتسنى للقوى الكامنة في نفوس الشرقيين ان تبرز من حيز القوة الى حيز الوجود لا ان تبقى خاملة فيهم

بخمول نفوسهم ثم تدفن بالتراب معهم فيعيشون خاملين ويموتون خاملين

***

كان الفتى موريسون منذ نحو ستين في الخامسة عشرة من سني عمره وهو مستخدم في احد مكاتب شيكاغو التجارية . الا ان نفسه كانت اعلى من حرفته فصارت تحدثه أن يفتش عن عمل يبلغ به دفعة واحدة قمة المجد والشهرة التي يريدها . فقال في نفسه « لا اجد خيرًا من الصحافة فانها طريق تؤدي الى كل طرق المجد والشهرة . انا الآن في السنة الخامسة عشرة ولدي عشرون ريالا اقتصدتها ووضعتها في البنك . فاني آخذ هذا المبلغ فهو كاف للابتداء بسياحة في اميركا واوروبا ومتى اعوز في المال كاتبت الجرائد بما اراه في سياحتي وحصلت خبزي . اذهب الى ملوك العالم وعظمائه فاقابلهم مقابلة صحافي واحدثهم بالسياسة وشؤونها ثم اجمع اقوالهم واقوالي في كتاب وانشره بين الناس فاربح به اموالاً طائلة وانشيء لنفسي في عالم الصحافة والادب مكانًا عاليًا »

فترك هذا الولد حرفته وودّع اهله ثم سافر الى واشنطون ليبدأ بمقابلة المستر ما كنلي رئيس الجمهورية . فكاد رجال القصر الابيض يلقون من السلم هذا الولد الوقح الجسور ولكن موريسون رأى امرأة الرئيس ما كنلي عائدة الى القصر فهجم على مركبتها وقص عليها قصته فاصغت اليه وقالت له ان يتبعها فدخل موريسون وراءها الى القصر وبعد بضع دقائق وُجد في حضرة المستر ما كنلي . فقال له الرئيس « تشجع يابني فاني اعتقد انك ستنشيء لنفسك مكانًا . ارى شعرك اصهب وهو فأل حسن فتشجع ولكن اجتنب معاشرة الاشرار واما انا فادعو لك بالنجاح في مشروعك »

هذه اول مقابلة قابلها موريسون . فعاد منها فرحًا نشيطًا . ووحد حرفته الجديدة اسهل من حرفة تسطير الارقام في الدفاتر التجارية . فسافر الى نيويورك ومنها سافر الى انكلترا في سفينة كانت مشحونة مواشي بناء على ان يخدم في السفينة مقابل اجرة السفر . فوصل الى لندرا بعد عذاب عاناه في البحر من الدوار وسوء معاملة رؤسائه . وكان الانكليز يحتفلون في ذلك الوقت بيوبيل الملكة فكتوريا فادهشه ما رآه من جلال الاحتفال وفخامة الزينة ولكنه جاء ليقابل العظماء لا ليشاهد الاحتفالات . فبدأ اولاً بمقابلة بالنظر دون الكلام . ذلك انه كان احتفال عظيم عند الدوق دي دينونشير فلبس موريسون ملابس احد الخدمة وحضر هذا الاحتفال وهو يخدم المدعوين فرأى في هذه « المقابلة النظرية » البرنس دي غال وكثيرين من عظماء الامبراطورية الانكليزية

ولكن اعظم عظمائها المستر غلادستون لم يكن حاضرًا هذا الاحتفال فانه كان قد شعر بدنو اجله فانزوى في قصره في هواردين تاركًا لندرا واحتفالاتها . فقصده الفتى موريسون وبقي ثلاثة ايام يحاول الوصول اليه دون ان يستطيع ذلك . الا انه في اليوم الرابع تسنى له الدخول عليه في مكتبته فاجلسه عظيم انكلترا الى جانبه وساله ان يقص عليه قصته . واذ اخذ في الكلام بصوت واطيء قال غلادستون « ارفع صوتك فانني لا اسمع ما تقول » . ولما انتهى موريسون من حديثه بادر الى سؤال غلادستون اتمامًا لشروط المقابلة السياسية « كيف تقضي اوقاتك ياسيدي » قال غلادستون « لا اعمل الآن عملاً غير المطالعة » . عند ذلك دخلت مس هيلين ابنة غلادستون لتخرج الولد لانها رأته قد اطال زيارته فلما هم موريسون بالخروج قال له غلادستون « انت كثير التطوح ايها الشاب وكثير الطمع فلا تترك الطمع يضلك سواء السبيل . من الواجب ان تدخل احدى المدارس وتقعد فيها زمنًا فان هذا مما يفيدك الآن »

فلم يعبأ موريسون كثيرًا بنصح المستر غلادستون بل طلب منه ان يعطيه كتاب توصية الى اللورد رئيس التشريفات . ثم جاء اللورد فدفع اليه الكتاب قائلاً « اريد مقابلة الملكة » فدهش رئيس التشريفات من جسارة هذا الفتى ولكنه اجابه واستاذن الملكة في ادخاله عليها فاذنت له . وكانت الملكة عند دخوله تقرأ جالسة بين فتاتين فوقف منها الفتى موريسون على بعد عشرة امتار وانحنى بشديد الاحترام . فقالت له جلالتها « تقدم مني فاني لا اسمع كلامك وانت بعيد عني . هذه الفتاة يابني هي الاميرة هنري دي باتنبرج وهذه الاميرة هي فيكتوريا دي غال . كان من الواجب ان تحييها ايضًا » فالم موريسون من هذه الملاحظة ولكن حضره الجواب فقال بلا تردد « اذا حضرت جلالتك فالعيون لا ترى سواها »

فابتسمت الملكة وضحكت الاميرتان لجوابه اللطيف . فسالته الملكة اذا كان يحب انكلترا قال نعم احبها قالت ولكنك تفضل اميركا عليها قال بلا ريب فانها وطني . قالت الملكة « فاذهب الآن يابني ومتى نشرت كتابك فابعث الي بنسخة منه » ومدت اليه يدها اليمنى فمسها بطرف اصبعه كما اوصاه رئيس

التشريفات وانحنى ما استطاع ثم خرج راجعاً القهقرى ظهره الى الباب ووجهه الى الملكة

ثم سافر من انكلترا الى بلجيكا فكان اول ما خطر له عند وصوله اليها مقابلة ملكها. فاخذ يرود اكناف قصره حتى اشتبه الحراس بامره فرفعوا تقريراً الى البوليس فجاءه احد رجال البوليس يسأله ما يريد فاطلعه على عزمه فاشار عليه الرجل ان يطلب ذلك من الكونت ديكلارك رئيس تشريفات الملك. فطلب ذلك من الكونت وفي ذلك اليوم ادخل على الملك ليو بولد فامره ان يجلس. فقال موريسون مترددا «كنت احسب ان الناس لا يجلسون في حضرة الملوك» قال الملك «اما انا فانك تستطيع الجلوس في حضرتي» ثم دار الكلام بين الملك والغلام على شؤون اميركا واوروبا فقال له الملك «ساسافر قريباً الى اميركا افلا تزور في فيها» فقال موريسون «كيف لا ازورك» ثم افترقا بعد ان هزّ موريسون يد الملك مودعاً على الطريقة الاميركية

وسافر من بلجيكا الى سويسرا فزار رئيس جمهوريتها ثم قصد المانيا وقابل الامبراطور غليوم الثاني في مدينة همبورج. فلما ادخل عليه قال له الامبراطور «انت الاميركي الذي ذكروه لي؟» ثم ابتسم له ابتسامة الوداع فخرج موريسون وهو يقول في نفسه ما سلمت حتى اودع. والظاهر ان هذه الطريقة التي استقبله بها الامبراطور غليوم قد اثرت في تصوراته اشد تاثير فاصبح يعتقد ان الامبراطور غيليوم هو مثال الملك الحقيقي

ثم قصد فرنسا لمقابلة رئيس جمهوريتها المرحوم فليكس فور. فوجد ذلك سهلاً. فلاطفه الرئيس واخذ يقص على هذا الغلام حالته الاولى اذ كان دباغاً وما لاقاه من المصاعب في طريقه ثم جاءت نوبة موريسون فاخذ يقص على المسيو فليكس فور تفاصيل زياراته لملوك اوروبا فقال له الرئيس وهو يغرب في الضحك مسروراً بحديثه «انكم ايها الاميركيون تدهشون العقول باعمالكم فانكم لا يوقفكم شيء ولا تقوم صعوبة في وجهكم» ودامت هذه المقابلة عشرين دقيقة ولم يخرج موريسون من غرفة الرئيس حتى دخل زائر غيره

ثم رجع موريسون الى وطنه. ولكن الجرائد الاميركية كانت قد ملأت اعمدتها بتفاصيل سياحته فنال بذلك شهرة واسعة في بلاده. وبعد عودته الى شيكاغو جمع تفاصيل سياحته في كتاب نشره في لندرا في هذا العام ومن ذلك الحين اصبح الفتى موريسون مشهوراً في عالم الصحافة والادب وصارت الجرائد الاميركية تتزاحم على ما يكتبه هذا الولد من الفصول والرسائل تبتاعها بقبضات الريالات. ويدعونه الآن «ملك الصحافيين»

***

قابل بين هذا الولد وبين اولادنا بل شبابنا وكهولنا

راينا منذ سنوات لاحد ادباء الشرقيين في احدى المجلات العلمية الشرقية سؤالاً عن دواء يشفي اضطراباً وجزعاً وخفقان قلب واصطكاك ركب تعرو صديقاً له حين مقابلته احد الحكام. يحسب السائل ان هذه الاعراض علة ومادرى انها جبن وخمول وضعف وقلة اقدام

في الشرق شبان (لا امامهم ولا وراءهم) كما تقول العامة اي لا يطلب منهم القيام على احد غير انفسهم يرضون في بلادهم بكل ضروب الضيم والذل والفقر والشقاء ويعيشون وسط هذه المستنقعات الادبية القبيحة في البطالة والرذيلة دون ان تتحرك لهم همة الى عمل يعملونه في بلادهم او تدفعهم عزة النفس الى الخروج منها لعمل يرفعون به شأنهم فيجيبوا او يموتوا. وما ذلك الا للخمول والضعة والكسل وقلة الاقدام.

شبان بلحى وشوارب لا يجسرون على المشي في شوارع المدينة في ظلام الليل. رجال يمشون في الظلام وهم يصلون ليمنعوا الجن والاباالسة ان تتعرض لهم ... نساء ترتعد فرائصهن من اقل الامور كأن قلوبهن جفن فراشة ممسكة دائمة الخفقان. اولاد يجزعون ويصيحون من رؤية نملة على ملابسهم او صرصور على مقربة منهم. فوق ذلك كله آباء هؤلاء الاولاد وازواج هؤلاء النساء كبارا وصغارا اغنياء وفقراء يرتجفون كقصبات تحركها الريح بازاء القويء وامام اصغر الحكام. وما ذلك الا من انحطاط النفوس وضعف القلوب وقلة الاقدام

فرحماكم اخرجوا الامة من هذا الشقاء الاجتماعي والمستنقعات الادبية. اعطوا الامة امهات ومعلمين يرفعون نفوس ابنائها ويثبون فيهم اقدام (موريسون) وفضيلة بهرام مالاباري ويعلمونهم تعليماً منطبقاً على حاجاتهم وانظروا بعد ذلك اي مبلغ من السعادة السياسية والاجتماعية تبلغه هذه الامة المسكينة

عجائب الدنيا السبع

لم يبلغ المتاخرون شأو المتقدمين في فن النقش والبناء مع كل ما اوتوه من المهارة ووسائل المدنية . وما ذلك لان العالم راجع القهقرى كلا انه يخطو الى الامام خطوات واسعة وانما عرض لهذا الفن امور صرفت عنه قوى النفوس وحاجات البشر . الى ذلك اشار فيكتور هيغو في احدى رواياته اذ قال عن فن البناء وعن فن الكتابة والطباعة « هذا سيقتل ذاك » ceci tuera cela اي ان الطباعة تقتل البناء وصدق فان هذا الفن الذي كان له لدى قدماء المصريين واليونان والرومان شأو عظيم قد اخذ في الموت تدريجاً منذ وُضعت آلة الطباعة وقامت الكتابة في القرطاس مقام النقش في الحجر

خذ الابنية القديمة العظيمة كهذه التي يسمونها «عجائب الدنيا السبع » وقابل بينها وبين ابنية المتاخرين العظيمة كبرج ايفل الذي نشرنا رسمه في الجزء الماضي وجميع غرائب البناء القائمة في اوروبا الآن تجد هذه الابنية الحديثة بازاء تلك الابنية القديمة كالمصباح بازاء الشمس . وفضلاً عن هذا فقد كان الاقدمون ينشئون مبانيهم العظيمة ويجمعون في انشائها بين الجمال والفائدة كالاهرام مثلاً فانها شيدت لتكون مدافن للملوك ولكن اية فائدة من انفاق القناطير المقنطرة لانشاء بناء عظيم كبرج ايفل مثلاً

وقد وعدنا في الجزء الماضي أن نأتي على تاريخ الابنية السبعة العظيمة التي يسمونها العجائب السبع لشهرتها وعظمة بنائها وانجازاً للوعد نقول

اهرام مصر

اهرام مصر مشهورة في الدنيا كلها فلا حاجة الى تعريفها . واشهرها اهرام الجيزه وفيها الهرم الاكبر مساحة قاعدته ٢٣٢ متراً مربعاً وعلوه في الاصل ١٤٦ متراً فصار الآن بكرور الايام ١٣٩ متراً . بناه الملك خوفرو اول ملوك السلالة الرابعة وذلك منذ نحو ٦١٢٠ سنة . وغريب ان يخطىء نابليون الاول هذا الخطأ فيقول لجنوده في واقعة الاهرام « ان اربعين جيلاً تنظر اليكم من علو هذه الاهرام » وكان يجب ان يقول ٦٠ جيلاً

اما الحجارة التي بنيت منها الاهرام فحجارة متناهية في الضخامة والكبر لا يكاد يزحزح الحجر الواحد منها مئات من العملة . وهذا ما جعل قدماء المؤلفين ان يقولوا ان الفراعنة كانوا يستعملون لبناء هذه الابنية مائتي الف رجل يشتغلون تحت العصا بلا رحمة ولا شفقة . لكن الارجح انه كان لدى قدماء المصريين الات هندسية للبناء والنحت ورفع الاثقال فاغنتهم عن كثرة العمله

واما الاماكن التي كانت تقطع هذه الحجارة منها فقلما يعرف شيء عنها . ونذكر اننا في صيف السنة الفائتة زرنا ادارة جريدة المؤيد الغراء فدخل علينا فاضل من مستخدمي المتحف المصري فدار الحديث على الاماكن التي كانت تقطع حجارة الاهرام منها فقص علينا اكتشافه لاحد هذه الاماكن في جبل حلوان . قال ماخلاصته حسبما حفظته الذاكرة . اكتشفت نفقاً عميقاً في هذا الجبل فاخذت معي زاداً ونوراً واصطحبت بعض الرفاق ودخلت هذا النفق فاكتشفنا فيه مقطعاً للحجارة التي بنيت منها الاهرام . فقد رأينا آثار قطع الحجارة بحجمها المبنية به ووجدنا طرقاً مفروشة بنوع من النبات نظنه وُضع هنالك حتى تمر عليه العجلات التي تحمل الحجارة . وقد وجدنا في سقف هذا النفق خطاً منقوشاً ممتداً من الجنوب الى الشمال تماماً مما يبعث على الاعتقاد بان المصريين كانوا يعرفون الابرة المغنطيسية (البوصلة) والا لما تسنى لرسم هذا الخط وهو في بطن الجبل ان يعرف الشمال تماماً . وقد اقمنا في هذا النفق بضعة ايام ونحن نطوف فيه فلم نطف الا قسماً منه لانه متسع جداً!

انتهى كلام الراوي واننا نستغرب قوله عن وجود النبات مفروشاً على طريق في مكان رطب منذ الوف من السنين

وقد ذكرنا ان الفراعنة بنوا الاهرام ليتخذوها مدافن لاجسادهم . ذلك لانهم كانوا يعتقدون بخلود النفس ورجوعها الى الاجسام فكان همُّ كل ملك حين ارتقائه عرش الملك ان يدبر مكاناً خالداً يودعه جسده . وقد احتال الفراعنة زيادة في اخفاء اجسادهم لئلا تنبشها الاجيال الآتية بعدهم فجعلوا مداخل الاهرام مخبوءة وجعلوا عند مداخلها ممراً يؤدي الى غير المكان الموضوعة اجسادهم فيه رغبة في ان يتيه في هذا المكان كل مكتشف على هذه المداخل فلا يتسنى له الوصول الى جثثهم . ولكن ذلك لم يمنع علماء المتأخرين ان ينبشوا هذه الجثث ويعرضوها في متاحف مصر واوروبا حيث توجد الآن جثث كثيرين من الفراعنة كجثة توتموس وسزوستريس ورعميس وغيرهم

وقد زار الكاتب الشهير شاتوبريان الاهرام عند زيارته

مصر راجعاً من سوريا فوقف مبهوتاً دهشاً لدى تلك العظمة القديمة والآثار الفخيمة ولم يقل فيها ما قاله بعضهم من انها ابنية لا فائدة لها بنيت ارضاء لاهواء ملوك مستبدين بل اعتبرها رمزاً الى فضيلة عظيمة وهي فضيلة حب الخلود والاعتقاد به . واعجبه كل الاعجاب تلك القبور المنتصبة في صحراء مصر لتطلع بروؤسها السحاب كانها حراس يحرسون المكان او خطباء يخطبون وهم سكوت ناطقين بسرعة فناء الانسان

﴿ منارة الاسكندرية ﴾

في القرون الاربعة الاخيرة التي تقدمت التاريخ المسيحي كانت الاسكندرية مدينة عظمى في اقصى درجات الاهمية التجارية . وكان فيها ٢٠٠ الف منزل كلها ذات طبقة واحدة مبنية بالرخام الابيض على شكل مربعات الا انها كانت بلا هندسة اسيء ان بناءها لم يكن صفوفاً فلم تكن شوارعها منتظمة متسعة لمرور الهواء فيها فكانت اشعة الشمس اذا وقعت على تلك الابنية الرخامية لتعكس عنها بصورة بهيجة جداً ولكنها كانت تزيد حر مصر الطبيعي حرًّا . فكان سكان الاسكندرية في تلك الازمنة البعيدة ينزلون الى الميناء في كل مساء كما يصنعون في هذه الايام يستنشقون على الرصيف قرب السفن الراسية في البحر نسيم البليل العليل الذي ينسيهم حر النهار . فكان الرصيف في كل مساء ملتقى للرجال والنساء وباعة الاثمار كائنين والتوت يمرون واحداً بعد واحد وهم ينادون باسماء اثمارهم على نحو ما يصنعون في هذه الايام . يليهم نساء يتفنن في الشبابات والمزمار انغاماً يطرب لها الحاضرون . وكان الغرباء يتوافدون الى الاسكندرية لسمة تجارتها ولتمتع في المساء بلذة التنزه على هذا الرصيف في هذه الحفلة الجميلة ومشاهدة بهاء النور المنعكس عن جدرانها الرخامية

ولكن البحر كان شديد الهياج خارج الميناء كما هو اليوم فكانت كثير من السفن تتحطم في الظلام على صخور الميناء مما كان يمنع كثيراً من السفن الاجنبية ان تقصد الاسكندرية خوف ان يهبط عليها الظلام قبل ان تصل اليها . فرأى بطليموس الذي كان مالكاً في الاسكندرية في النصف الاول من القرن الثالث قبل المسيح ان يعمل عملاً يساعد به التجارة على التخلص من اخطار البحر تسهيلاً لسفر الغرباء الى مدينته زيادة في تجارتها وسعتها . فامر يومئذ ان يبنى في جزيرة فاروس عند مدخل الميناء برج شاهق توقد فيه النيران طول الليل لتهتدي بها السفن الى الميناء . فبني هذا البرج في جزيرة فاروس ومن هذه الكلمة اشتقت كلمة phare الافرنجية وكلمة فنار التي تطلق اليوم على المنائر البحرية . وقد بني البرج من الرخام الابيض وجعل ابراجاً يعلو بعضها بعضاً الى ارتفاع ١٦٠ متراً وقد بلغت نفقته اربعة ملايين ونصف مليون فرنك . وجعل في اعلاه موقد ذو نوافذ من جميع جوانبه ينبعث منها نور الحطب الذي كان يوقده فيه طول الليل رجال يقيمون فيه لهذه الغاية . فنجا بهذه المنارة كثير من السفن والبحارة من خطر الغرق على الصخور . وكان البحارة وهم مسافرون في عرض البحر الواسع بلا ابرة ولا ساعة ولا خارطات جيوغرافية اذا ظهر لهم هذا النور من بعيد ارتدت اليهم ارواحهم وانتعشت نفوسهم اذ يرون انه لم يبق لوصولهم الى ميناء السلامة الا ساعات معدودة فيزيدون نشاطاً في التجذيف وهم شاخصون الى ذلك النور الذي يهتدون به حتى يصلوا الى اسفل البرج عند مدخل الميناء فيجدوا السلسلة الحديدية معترضه في المدخل تحول دون دخولهم وعليها الحارس لا يبرح مكانه طول الوقت . فبعد اتمام بعض الاصطلاحات تسقط السلسلة فتدخل السفينة الى الميناء بسلامة وياخذ رجالها بعد اضطراب البحر يحسبون الارباح التي سيربحونها من تجارتهم

﴿ الحدائق المعلقة ﴾

بنيت الاهرام والمنارة لفائدتين كما ذكرنا اما الحدائق المعلقة فقد بنيت ارضاء لهوى امرأة وهذه الامرأة هي الملكة سميراميس التي خلفت زوجها نينوس ملك اشور ووسعت هذه المملكة بنشاطها وقوتها . فقد اجتمع لدى سميراميس اموال طائلة من انتصاراتها الكثيرة فرأت ان تعمل بها عملاً تذكر به . فامرت بانشاء الحدائق المعلقة . وهي جنائن قائمة في الهواء على اعمدة ضخمة طول أطولها ٥٠ متراً . ارضها مبنية من طبقتين من الاجر المحوص فوقه طبقة من الرصاص عليها من التراب بقدر ما يلزم لنمو أكبر الاشجار . وفي هذه الحدائق برك من ماء نهر الفرات تنبجس المياه من انابيبها انبجاساً فيسمع لها خرير شجي تحت حفيف اشجار الدلب والدرداء المغروسة في هذه الجنائن صفوفاً صفوفاً على خط مستقيم . وكانت سميراميس مشغوفة بالتنزه في هذه الحدائق الهوائية تستنشق فيها نسيماً بليلاً مطيباً بريح الاشجار والازهار على انغام خرير الماء واصوات القيثار والشبابة بينما يكون سكان بابل في عذاب شديد من الحر . الا انهم كانوا ينالون حصتهم من هذه الحدائق وذلك عندما يهب عليهم نسيم المساء فيحمل لهم شيئاً من برودة مائها وطيب

ريحها . وقد وجدت حديثاً انقاض هذه الحدائق الجميلة في اكمة من الخراب في بابل

وتذكرنا هذه الحدائق المعلقة العربات المثقلة بالازهار والشجيرات والنباتات التي يجرها بياع الازهار في شوارع الاسكندرية . فانك قد تمر في شارع ارضه مملوءة بالاقذار والاوساخ وحوانيته سوداء من قذارتها وناسه على غير ما تحب ان تراهم به من النظافة واذا بعينيك تقعان بغتة على عربة فوقها اغصان تقابل وازهار جميلة تنشر على تلك القذارة ريحها الطيب يدفعها رجل امامه وهو ينادي لاجل بيعها فتستنشق ملء صدرك هذا الريح الوقتي وسط تلك القذارة الدائمة وتحسب ان المستنقعات اخذت تتحول رياضاً او ان الرياض بدأت تنتقل الى المستنقعات . . .

✻ صنم رودس ✻

هو تمثال عظيم صنعه سكان رودس في سنة ٢٨٨ قبل المسيح اكراماً لابولون اله الشمس لاعتقادهم انه انقذ مدينتهم من يد القائد ديميتريوس بوليوكريت الذي حصرها ليستولي عليها . وصانع هذا التمثال شار يس دي لاند صنعه من النحاس وقضى في صنعه ١٢ سنة اي من سنة ٣٠٠ قبل المسيح الى سنة ٢٨٨ . وقد نصبه اهل رودس على قاعدتين شاهقتين بنوها عند مدخل الميناء وجعلوا المسافة بينهما ١٢ متراً وجعلوا على كل قاعدة احدى قدمي التمثال فكانت اكبر السفن واعظمها تمر من بين فخذيه . وكان الاجانب يستدلون بنظر هذا التمثال الجميل على غنى تلك المدينة وسعة سكانها فيدخلونها بسفنهم وبذلك كانت تزداد المدينة عمارة وسعة

الا انه اصاب رودس في سنة ٢٢٢ قبل المسيح زلزال اسقط التمثال فبقي ممدوداً على شاطئ البحر حتى استولى المسلمون على رودس في خلافة عثمان (رضه) فباعوا التمثال فاخذه مشتروه وقطعوه وحملوه مع جميع ملحقاته على ٩٨٠ جملاً

✻ هيكل ديانا ✻

بنى هذا الهيكل سكان افيزيا في سنة ٦٢٠ قبل المسيح اكراماً للالهة ديانا التي كانوا يعتقدون انها تحمي مدينتهم ونصبوا امام باب الهيكل تمثال ديانا فاتخذ اليونان هذا الهيكل في ذلك العهد مزاراً كانوا يزورونه كل سنة ويقيمون عنده اعياداً عظيمة . وكان الهيكل مصنوعاً من الرخام الناصع البياض باتقان مارأت مثله عينان فاذا وقع عليه نور القمر في الليل وهو عندهم صورة ديانا صاحبة الهيكل تالق المكان بالانوار الذهبية المنعكسة عن فضة جدرانه فكان منظر بهيج جداً . وقد احرق هذا الهيكل رجل يدعى « ارومترات » رغبة في تخليد اسمه مدى الاحقاب ولكن سكان افيزيا اعادوا بناءه حتى جاء السيكثيون فاحرقوه ونهبوه ثم استولى الامبراطور المسيحيون على المدينة فهدموا هذا الهيكل

✻ تمثال جوبيتير ✻

جوبيتير اله الآلهة عند قدماء اليونان وفيدياس صانع هذا التمثال اشهر نقاشيهم . صنعه من العاج الابيض وجعل ملابسه من الذهب الخالص ونصبه في هيكل في اوليمبيا حيث كانت تجري الالعاب الاولمبية في كل اربع سنوات اكراماً للاله جوبيتير . وكان هذا التمثال اتقن واحسن ما نقشه قلم نقاشي اليونان وفيه يقول ايكتيت « اذهب الى اوليمبيا وشاهد تمثال جوبيتير فيها واعتبر من مصائبك ان تموت ولا تراه »

وقد نقل الامبراطور ثيودوسيوس هذا التمثال الثمين الى القسطنطينية في القرن الخامس قبل المسيح ولم يوجد له اثر فيها منذ ذلك الحين . وغني عن البيان انه اذا وجد اليوم هذا التمثال في الاستانة فانه لا يوجد في خزائن الارض ما يكفي لابتياعه

✻ مدفن الملك موزول ✻

وسابعة هذه العجائب مدفن الملك موزول وهو ملك عاش في النصف الاول من القرن الرابع قبل المسيح وكان حاكماً على مملكة كاريا الصغيرة في اسيا الوسطى . توفي وكانت امرأته ارطاميس تحبه حباً شديداً فرأت ان تقيم له في هاليكارناسيا مدفناً شائقاً من الرخام وخافت ان تموت قبل ان يتم عملها فزادت العملة وجدت في العمل حتى انتهى وتم كل شيء فكأنه لم يبق شيء يربطها بهذه الحياة بعد اتمام ذلك المدفن العظيم فتوفيت تاركة للناس بناء عظيماً فخماً ومثالاً ساميّاً للحب الزوجي والامانة الزوجيه

***

هذا وقد كتب فيكتور هيغو قصيدة طويلة عنوانها « عجائب الدنيا السبع » جعل فيها هذه الابنية السبعة تتكلم كل منها على حدة وتفاخر بقوتها وجمالها وفخامة بنيانها واعجاب الناس في كل العصور بها . وتركها حتى اتمت كلام الفخر فقال لها فيكتور هيغو في شعر بليغ « كفاك فخراً فانك بقدر ارتفاعك وعلوك تكون اكمة خرابك مرتفعة عالية »

وفي الحقيقة ان هذه الابنية الفخيمة قد افناها الزمان كلها الا الاهرام فان يد الدهر لم تقو عليها الى الآن

(١) من الفسيل تُعرف النخيل

الدولة العربية

٢

في احدى المدارس الفرنسويه في اوائل القرن التاسع عشر وقف احد الفاحصين في قاعة الفحص بين جمهور من التلامذة والفاحصين سائلاً بتعجب · من كتب هذه البذة ؟ فاجابه هنالك تلميذ في السنة الرابعة عشرة من عمره مستحيياً · انا ياسيدي · فالتفت الفاحص للحاضرين قائلاً · اقرأوا ما كتب هذا «الولد العظيم» واعجبوا فانه لابد ان يكون له بيننا شأن خطير

وكان هذا الولد فيكتور هيغو الشهير

ذلك انه يغلب في الحي صغيراً ان يدل على نفسه كبيراً · والامة جسم حي كسائر الاجسام التي تقبل النمو الداخلي وتطرأ عليها عوارض الموت والحياة · فيغلب ان يكون في روحها صغيرة ما يدل عليها كبيرة · ومن يطالع ما في الايديسيه من تاريخ العرب قبل الاسلام اي حين كانوا بطوناً منتثرة وافخاذاً مبعثرة وقبائل منتشرة يحكم لاول وهلة حكم ذلك « الفاحص » ان ذلك الولد الذي بين يديه لا بدان يصير يوماً رجلا عظيماً

ولقد صار ذلك الولد عظيماً بعد فترة فطرية جامعة للفضائل والنقائص معاً · فتساق جبل العز فبلغ قمته في عهد العباسيين ثم اخذ في التدلي والنزول غير مستطيع البقاء على تلك القمة الشاهقة · وما زال آخذاً في النزول حتى صار الى حيث صار قبله الفرس واليونان والرومان وغيرهم من الممالك القديمة وكثيراً ما تساءل البعض عما دعا الى سقوط تلك الدولة العظيمة مع ما اتاها الله من الحول والطول والعز والتأييد · وانتهى التمني بغيرهم الى طلب تجديد ذلك الشباب وتعمير ذاك الخراب غير ذاكر ان الدول ليست بالبيوت والجدران · تهدم وتبنى تبعاً لاهواء الانسان · بل في اجسام حية تقوم بما فيها من القوى الحيوية حين مناسبة الزمان والمكان · ولها حدود لا تتعداها واعمار لا تجاوزها فاذا جاء اجلها لم يكن لها ان تستقدم او تستأخر ساعة من الزمان ·

فما سقطت تلك الدولة الا طابقاً للنواميس الطبيعية والشرائع الالهية ولم يكن بالامكان غير ما كان · ووظيفتها السماوية التي أرسلت الى هذه الارض من اجلها كانت وضع شريعة دينية وحفظ التمدن اليوناني والروماني لنقله الى الاجيال الآتية فبعد ان أتمت هذه الوظيفة السامية التي انتدبتها العناية لها سقطت وماتت موت فراشة الحرير بعد اخراج بزرها وانتهاء امرها · وهي ما ارتفعت الا بفضائلها السامية وما انحطت الا بما كان في جسمها وما طرأ عليها من النقائص القاتلة · وهذا شأن كل امة لا ترتفع بغير فضائلها ولا تنحط بغير رذائلها اذ لا صدفة ولا اتفاق في نظام الكون وشريعة الوجود وتلك سنة الله في الكون ولن تجد لسنة الله تديلاً

والتاريخ اصح شاهد على هذا القول · فقد رأينا في وقائع الشام وغيرها من وقائع العرب في صدر الاسلام شرذمة من تلك الامة الباسلة تفل جيشاً عرمرماً كجيش الروم في اليرموك ورأينا اسكندر الكبير قبلهم ونابليون الاول بعدهم يلقيان بشرذمة من الجند اضعاف عددها فيؤتيان فوزاً مبيناً ونصراً مؤزراً · وما سرّ ذلك في الابدان بل في النفوس التي تدبر تلك الابدان · فاعلى الممالك ما يبنى على الفضائل السياسية والادبية لا على السمهرية والهندية وان غضب المتنبي رحمه الله ·

ومن نظر في اخلاق تلك الدولة اذ كانت فسيلة اي قبل اتمام الله نعمته عليها بنظم عقدها وجمع شملها وجد فيها بصورة مصغرة تلك الفضائل والنقائص التي ظهرت فيها بصورة مكبرة يوم اصبحت نخلة سحوقاً

وقد ذكرنا اخص تلك الفضائل في المقالة الاولى وهي حب الاستقلال والشجاعة والوفاء والذكاء والعدل والرأي وحمي الذمار والسخاء والنهامة والنخوة وغيرها فضلاً عن اهم هذه الفضائل وهي الفضيلة الدينية التي ليس من غرضنا الكلام عليها

بهذه الفضائل فتح العرب كنوز كسرى ودكوا ملك قيصر وملكوا البلاد واسسوا مملكة عظمى · غير ان تلك الفضائل ما كانت لتبقي وحدها للملك قوته وحياته · نعم هي جواهر ثمينة لكنها بلا سلك تنتظم فيه طبقاً لناموس الوحدة واستدعاء لما يكون وراء ذلك من القوة والمنعة

وهذا السلك هو « قابلية الانتظام » واحترام السلطة الحاكمة بالخضوع لها والثبات على طاعتها · ولم يكن للعرب هذا السلك لا في صباهم ولا في شبابهم فضلاً عن شيخوختهم فان روحهم الوطنية قد منيت من فطرتهم بسوس الشقاق فكانت مرتعاً للانقسام في جميع ادوار حياتها · ويسمي الافرنج هذا السوس individualisme وتسميه استفراداً او حب القيام

(١) نشرت هذه المقالة لمنشيء الجامعة بتوقيع (م · س) في جريدة الاهرام الغراء منذ نحو سنة وجعلت هنا تتمة لمقالة (الفضائل العربية) التي نشرناها في الجزء الماضي ·

بالذات او استئثاراً كما سماه احد علمائنا الافاضل

وقد تشابه العرب واليونان في هذا الداء داء الاستفراد تشابهاً غريباً . فان اكبر الرذائل والادواء التي اودت باليونان حبهم الاستفراد اي رغبة كل مدينة من مدنهم في الاستئثار بامر السلطة مما جعلهم كاسماك يتاكلون ويفنون بعضهم بعضاً . ومن يطالع تاريخ حروبهم خصوصاً حروب سبارطه واثينا لا يسعه الا استغراب تلك الرغبة الشديدة التي كانت لكل من الاخيتين في افناء اختها . ولعل هذا الخلق نتيجة لازمة لقوة النفس وشدة حب التسلط

وقد فطر العرب على مثل ذلك فكان دأبهم التقاطع وغزو بعضهم بعضاً قبل تالفهم والانقسام والخروج عن طاعة الهيئة الحاكمة بعده . فدلوا بذلك كما قال ابن خلدون على انهم لا يحسنون سياسة الملك وان احسنوا تأسيسه . وبين الامرين فرق واضح . فالتأسيس يقتضي القوة والبسالة العسكرية والصبر على الشدائد . اما السياسة فاول ما تستوجب اتحاد الكلمة والثبات والخضوع لصاحب الامر وقابلية الانتظام . وهذا الذي كان كان ناقصاً في الاخلاق العربية

ولا نطيل الكلام في هذا الصدد بل نكتفي بدليل واحد على صحة هذا القول

افتح تاريخ العباسيين وهم الذين بلغ التمدن العربي في عهدهم اسمى درجاته . احص عدد الخلفاء من الأمين الى خروج الامر من ايدي العباسيين . هل فرغت . ما كان المجموع؟ كان على ما اراى ٣٢ خليفة ان لم يكن هنالك خطأ . ضع الآن عدد الخلفاء الذين توفاهم الله على تخت الخلافة الى جانب والذين أنزلوا عنه خلعاً او قتلا الى آخر . ماذا تجد؟ تجد في الاثنين والثلاثين خليفة ١٨ توفاهم الله على تخت الخلافة و ١٤ أنزلوا عنه ستة قتلاً وثمانية خلعاً

فاذا تدبرت ذلك وعرفت ان نحو النصف لم تصف لهم الايام ليشتغلوا بامور الرعية ورأيت من جهة اخرى خروج الولاة عن طاعة السلطة العليا استئثاراً بالامر كاستقلال الادارسة والاغالبة في الغرب وابن طولون في مصر وقيام الدول الواحدة تلو الاخرى باستقلال ولاتها عن الدولة الكبرى — علمت صحة القول بعدم قابلية الاخلاق العربية للانتظام على ما هو لازم لتأسيس الدول العظام على طريقة هذه الايام وثبت لديك ما كان من عجز الدولة العربية عن المحافظة على سلطتها ووجودها بازاء عالمها وولاتها فضلاً عن العناصر الغريبة التي كانت تحدق بها

وهذه الجراثيم جراثيم داء الاستفراد والانقسام وجدت في روح الامة من حين وجدت اي من يوم كانت قبائل منتشرة في عرض البر لا هم لها غير التخاصم والتقاطع وغزو بعضها بعضاً . وان هذه النخيل قد ورثت داءها من تلك الفسيل

لكن هذه الدولة العظيمة من رحمة الله بالتمدن لم تسقط قبل اتمام وظيفتها . بل وما كان سقوطها نفسه وظيفة اخرى خصتها بها العناية الالهية تمهيداً لسبيل دولة عظمى اقدر منها على صيانة بيضتها وحفظ مركزها . ونريد بها دولة سلاطيننا آل عثمان العظام التي ورثت الميراث العربي بانتخاب سماوي وحكم طبيعي فكفت بقوتها ذلك الميراث كل ما كان يحدق به من المصائب والاخطار

فليت الذين يهجون كل حين بدولة العرب يذكرون ما كان من عجز العرب عن حكم انفسهم وينتبهون الى ان ميراثهم لولا الدولة العثمانية لم يبلغ هذا المقام بل ربما لم يثبت بعد اصحابه بضعة اعوام .

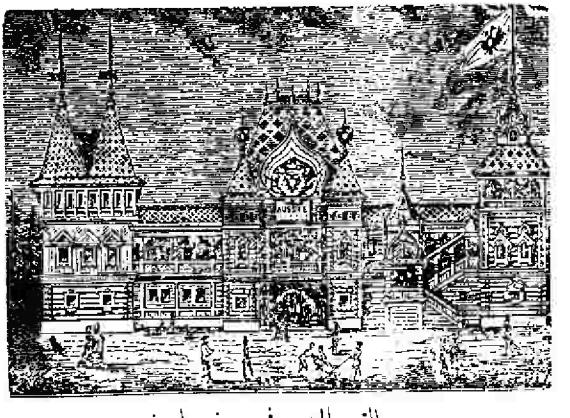

رسم القسم الروسي في معرض باريز

بيت صيني في حرش

غرفة عاملة من العاملات اللواتي يشتغلن في بيوتهن